أهمية الوحي الإسلامي
في الحضارة الإنسانية

إعداد

أ.د/ رؤوف شلبي

عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

أولا: في العقيـــدة.

ثانيا: في الأخلاق.

ثالثا: في السلم والحرب.

رابعا: في العلم والعلماء.

أولا : أهمية الوحى الإسلامى فى العقيدة

كانت البشرية قد ضلت طريق التوحيد الذى جاء به الأنبياء فاخترعت العقول الإنسانية لها أديانا .

. لقد كانت الطوطمية وما زالت تشكل دينا يخر له بعض الناس سجدا .

. وحرف اليهود دين الله وقالوا عزير ابن الله .

. وحرف النصارى دين الله فقالوا : إن الله هو المسيح وأن عيسى ابن الله .

. واضطرب الفلاسفة فأخذت محاورات سقراط توجه البشرية إلى حقيقة الصانع .

قال سقراط لتلميذه : أفى الناس من يعجبك براعته فى الصانع ، فقال التلميذ : نعم .

فقال له سقراط : أى الرجلين أرفع شانا من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ، أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ذات العقل والحركة ؟

فقال التلميذ : من يصنع الصور الحية ثم استدرك التلميذ قائلا : اللهم إلا أن تكون الصورة من عمل الاتفاق والمصادفة لا من عمل العقل .

فقال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة فما قولك فى تلك الأشياء ؟ ما هى التى عندك من فعل العقل ، وما هى التى عندك من فعل الاتفاق ؟

قال التلميذ : لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

فقال سقراط : أو لست ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة : فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع مايكون لعيشه نافعا صادقا .

وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا أنوف تشمها ؟ و كيف ندرك للطاعم ، وتفرق بين المر والحلو والمز ، لو لم يكن لسان تذوق به الخ . . . الخ محاورات سقراط .

فقاله التلميذ : نعم إذا نحن فكرنا فى ذلك فإننا نؤمن بأنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمخلوقه .

فهل ستبقى العقيدة الإلهية فى حاجة الى مثل أستاذية سقراط الذى لم يستطع أن يقنع تلميذه إلا إلى درجة أنه إذا فكر فيما قاله أستاذه فانه يؤمن بوجود صانع . . أما صفات هذا الصانع وحقوقه الواجبة على البشر فلم يشرحها سقراط ولم يعرفها تلميذه أرسطو ذلك الذى أدعى أن الله موجود بلا إرادة ، ولا علاقة له بالكون لأن الكامل لا يصح أن يتصل بالناقص .. كما زين له العقل ذلك .

وما دام الأمر قد صار إلى العقل والتفكير فقد اختلفت الآراء والمذاهب وبالطبع اختلفت النتائج ، فاذا أضيف إلى ذلك أن العقل يتأثر بالوسط والبيئة والثقافة والمصالح فان التفكير العقلى فى مسألة الألوهية قد لا يتفق عليه كل الآراء وان تستطيع كل العقول أن تنتج فكرة واحدة مستقيمة نحو وجود الله ونحو صفاته وكمالاته(١) .

فهل ستبقى أشرف القضايا الفكرية التى تتشرف بها الإنسانية فى حاجة إلى من يكشف عن حقيقتها من بنى البشر ؟

---

(١) راجع الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية دكتور يحيى هاشم

لقد تحدث فلاسفة المسلمين وفى مقدمتهم فيلسوف العرب الكندى ١٨٥ هـ — ٢٥٢ هـ عن وجود الله وحاك بعقله دليلا أقامه على مقدمات بدهية وانتهى إلى قوله :

أن فى الظواهر والمظاهر التى تبدو للحواس لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول وعلى أنه أحكم من كل حكيم و . . . الخ .

فهل غاب الله — استغفر الله العظيم من هذا الافتراض — حتى يقوم الناس بالنيابة عنه لإثبات وجوده وتحديد صفاته .

وعلى أدعاء صحة هذا الفرض فهل يكفى فى الاقناع والطمأنينة الوجدانية والعقلية وخلود الأخبار يوم القيامة فى الجنة وبقاء العصاة فى النار مايصل اليه العقل من أدلة ؟

لقد كانت البشرية فى حاجة ماسة إلى الوحى الإسلامى ليصحح فكرة المقيدة ، ويرد ضلالة من سبق من أهل الكتاب ، وليكون مع العقل دليل الاقتناع والطمأنينة الذى ينجيه يوم القيامة من أهوالها الشداد يقول الله تعالى :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة، وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » .

سورة البينة

فى هذه الآيات من سورة البينة عدة حقائق تاريخية :

الأولى : أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية وكان الوحى الإسلامى

لازما لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا عليه إلى الحق فى الاعتقاد الصحيح .

الثانية : أن أهل الكتاب لم يتخلفوا فى دينهم عن جهالة ولا عن غموض فى الوحى ، وإنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم والبينة فمن الذى يردهم عن هذا الاختلاف : مناقشة الحكماء ، أو عبقرية العقلاء ؟

أم أنه شىء آخر : إنه الوحى الإسلامى الذى يدفع الباطل ويزهقه .

الثالثة : أن الدين فى أصله واحد ، وقواعده واضحة وبسيطة لا تدعو إلى التفرق والاختلاف فلماذا اختلف الناس فى التعبد وصنعوا لهم أديانا ؟ ومن الذى يرد الناس الى وحدة الدين ؟ لاشك أنه الوحى الإسلامى يقول الله تعالى :

« منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » .

٣١ — الروم

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

١٥٩ — الأنعام

الرابعة : إن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية .. فهل يتركون هكذا .. لابد من الوحى الإسلامى ليخرجهم من الظلمات التى جعلتهم شر البرية إلى النور الذى يجعلهم من أولياء الله .

يقول الله تعالى: «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

(سورة البقرة)

ولهذا بعث الله نبيه محمد ﷺ.

«ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بأذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد».

(سورة ابراهيم)

يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما.

(١٧٤ — ١٧٥ — النساء)

«قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن أهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل».

(١٠٨ — يونس)

إذن الوحى الإسلامى كان لازماً لتصحيح العقيدة، وأخراج شر البرية الذين ضلوا الطريق إلى نور الهداية والفلاح.

قال الله تعالى:

وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم، وأن الذين أورثوا الكتاب بعدهم لفى شك منه مريب، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل

آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير .
١٤ — ١٥ الشورى

والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

١٦ — الشورى

أن الأجيال التى ورثت الكتب عن الأنبياء قد تفرقوا فى أصول العقيدة حتى عجب المجامع المسيحية بعـــديد من قرارات الطرد والحرمان وبقرارت إلغاء هذا الطرد والحرمان وأصبح الدين كالثياب الذى يبدل حسب الظروف والمناسبات السياسية وهكذا تكون العقيدة لأن العقيدة هى القاعدة الثابتة الراسخة التى يقف عليها المؤمن ويعرف بها طريقه إلى الله وتقوده إلى النفع والصالح العام فى الدنيا وفى الآخرة ولكن الديانات أصبحت فريسة للعابثين والسياسيين حتى فقدت شكلها ومعناها وروحها وصارت جواداً للحكم ولذلك أنقسمت الكنائس عقـــدياً وملياً يقول الكاتب الأوربى (ج . ه . دنيسون) فى كتابه :

فى القرنين : الخامس والسادس الميلادى كان العالم المتدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة قد أنهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها : وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى التى تكلف بناءها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة قد اشرفت على التفكك والإضلال وأن البشرية أوشكت على أن تعدد سيرتها الأولى الهمجية . . . ولكن الله أنقذ البشرية بمولد محمد ﷺ . .

وبهذا المولد الجديد ، وبالوحى الإسلامى وهب الله للحياة قيادة جديدة إنها قيادة جديدة إنها قيادة شـــاملة للبشرية جمعاء وهى القيادة الحازمة

المستقيمة السائرة على منهج واضح ويقين ثابت تدعو إلى الله على بصيرة وتستقيم على أمر الله دون انحراف ، أو نأى عن الإهداء .

وهى القيادة التى تعلن وحدة الرسالة ، ووحدة غاية الأنبياء ، ووحدة المنهج والطريق إلى الله .

وهى القيادة التى ترد الإيمان إلى أصله الصحيح الثابت الواحد وترد البشرية لخالقها الله الواحد الأحد . . . فى وضوح واضح جلى :

«قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» .

فمن حاج بعد هذا فحجته باطلة ومقلوبة . . . والله غالب على أمره . . . ومن شاء فليتخذ الإسلام إلى ربه سبيلا .

ويشهد لهذه الظاهرة المستشرق الفرنسى اتين ديليه الذى أسلم وسمى نفسه (ناصر الدين) وكتب عن سبب إسلامه كتاباً ترجمه الأستاذ راشد رستم إلى اللغة العربية ، واستفاض كثير من الكاتبين فى الإستشهاد برأيه على صحة العقيدة الإسلامية وملخص ذلك :

أن الشكوك الكثيرة تدور فى نفسه ، عندما وقعت فى يده نسخة من مجلة انجليزية ، فإذا به يجد فيه جواباً ، عن أسئلته ، قرأ فيها :

لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين؟

ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة ، عملية فى جوهرها — لأننا معاشر الإنجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثا بالعمل — عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط .

أحق هذا ؟

أن « دينيه » لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة ، وإذا كان العقل يعجز عن أختراق الحجب ليصل إلى ماوراء الطبيعة، فإنه مع ذلك الأداة التي ترشدنا إلى وجه الحق فيما يعرض لنـــا من أمور ، فأخذ يزن الأمور ، وأخذ يبحث . .

أحق أن الإسلام « هو العقيدة الدينية الصحيحة » ؟

صلاحية العقيدة الإسلامية لكل زمان ومكان :

وكان من التوفيق أن سافر «دينيه» إذ ذاك إلى الجزائر ، وتنقل فى بلاد المغرب ، فخالط المسلمين وعاشرهم ، وسمع منهم ، وسألهم وناقشهم، وفكر وتأمل ، فرأى كما يذكر فى رسالته « أشعة خاصة بنور الإسلام » :

أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الإسلام ، وفى الوقت نفسه حر التفكير .

وكما أن الإسلام قد صلح — منذ نشأته — لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات ، أنها تجد مكانا رحباً ، وقبولا حسنا ، ورضاء سهلا ، سواء عند العالم الأوربى ، أو عند الزنجى الأفريق ، وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ، ومن معبوداته وأصنامه . .

« وبينما تجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى أسواق لندن ، حيث مبدأ القوم « الوقت من ذهب » إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الرومانى .

وكما يتقبله — عن رضا — ذلك الشرق ذو التأملات، ورب الخيال، إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن، وتملكه الشر(١).

لقد وقرت هذه الفكرة في نفس «دينيه» حتى أنه ليرددها في الكثير من كتبه فيما بعد، يقول في آخر كتابه الحج إلى بيت الله الحرام:

«لو كان الإسلام الحقيقي معروفاً في أوربا، لكان من المحتمل أن ينال — أكثر من أي دين آخر — من العطف، والتأييد، من جراء روح التدين التي نجمت عن الحرب الكبرى، فإنه — والحق يقال — يلائم جميع عقول معتنقيه على اختلاف مشاربهم، فهو ببساطته المتناهية يهدي علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم.

كما أنه تعزية وهدى لزنوج أفريقيا الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية.

ويرقى بروح ذلك التاجر الإنجليزي، رجل العمل الذي يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين، ويسمو بنفسي الغربي الشغوف بالفن والشعر، بل هو يسحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم، وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد — الجسم والروح معاً، وفي وسع حر الفكر — وهو ليس ملحداً حتماً — أن يعتبر الوحي الإسلامي عملاً من أعمال تلك القوة الخفية التي نسميها «الإلهام» وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوي على أسرار خفية لا يسميها العقل»(٢).

(١) عن «أشعة خاصة بنور الإسلام»:

(٢) راجع كتاب: الحج إلى بيت الله الحرام للمستشرق المسلم ايتين دينيه.

ويردد (ديليه) الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد ، لقد رسخت هذه الفكرة فى نفسه من أول وهلة ، واستمرت معه إلى نهاية حياته .

لقد وقر فى ذهنه ، أن الإسلام دين عام خالد .

الموازنة بين الإسلام والمسيحية :

ولكنه لأجل أن يتبين — وضوح — الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية ، ولأجل أن يصل إلى الحد الأسمى ، فيما يتعلق بالإخلاص لضميره الدينى ، أخذ يوازن موازنة قيمة بين الإسلام والمسيحية فرأى :

(١) فيما يتعلق بالإلة :

«الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الإله شكل بشرياً ، أو ما إلى ذلك من الأشكال .

أما فى المسيحية فإن لفظة « الله » تجعلها تلك الصورة الآدمية ، لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والاضمحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، إلى لحية بيضاء مرسله مهملة تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلاً ولا تعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامهم شيخاً هرماً قد أبلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك « ياهوه » الذى يمتلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف « الفاتيكان » وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة :

أما « الله » فى دين الإسلام الذى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن يجرى به ريشته ، أو ينحته أزميـــله ، ذلك لأن « الله » لم يخلق الخلق على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد .

(ب) فيما يتعلق بالصلاة والنظافة :

أن الحركات والإشارات فى الصلاة الإسلامية هى ذات بساطة ولطافة ونبالة ، لم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها .

كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشخوص إلى السماء ، واستنزال الدموع الذى تذكرنا بالدموع الجليسرينية ، التى يصطنعها ممثلو « السينما » فى عصرنا الحاضر . حقاً ، أن الصورة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التى خصها المسيحيون بالصلاة المسيحية مما جعلها فى غير جمال ، ولا جلال ، ولا وقار .

والأقوال والحركات التى فى الصلاة الإسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء ، والإطمئنان ، وهى خالية من مبالغات الوضع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك مما هو غريب فى العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور ، وهو الغنى الحميد .

ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله فى السماء عند دعوته ، وهذه الحال تحمل فى طياتها إلحاداً ، إذ تجعل السماء مثوى الإله ، وتنفى بذلك عنه صفة الوجود فى كل مكان وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفـــة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية ، فهى مفروضة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد ، وكم من شيخ كبير ، وبدين سمين ،

يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة ، مما لا يستطيعه المسيحي في مثل هذه السن ، أو في مثل هذه الحال عالم يكن قد روض على ذلك من قبل ، أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة ، ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة ، والنظافة من الإيمان » .

(ج) في التسامح :

يقول القس « ميشون » في كتابه « سياحة دينية في الشرق » :

« أنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة ، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم » .

(د) في العلم :

رفع النبي محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب ، وجعله من أول واجبات المسلم ، وفي ذلك يقول ﷺ :

« أطلبوا العلم ولو بالصين » .

و : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، بدم الشهداء » .

و : « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » .

و : « فضل العلم خير من فضل العبادة(١) » .

(١) راجع كتاب : الإسلام والإيمان لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٤١٥

وقد قظر المسيو «كازانوفا»، أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليات ، وكيف يقولها أحد أصحاب الديانات فعلق على ذلك بقوله :

« يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا . . .

يعتقدون ذلك ويفسون أن نبى الإسلام هو القائل : بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ».

فأى رئيس دينى كبير أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المتين ؟

هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة :

نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم ، ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكفاية عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار وجلبة الشنار ؟

كما أنه سوف يقال : إن أوضح مبادىء الحرية الفكرية قد كشفت أمثال « لوثير » و « كالفين » ، وعاد الفضل فيها إلى رجل عربى من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام(١) .

---

(١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام راجع كتاب : الإسلام والإيمان لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود .

(٨) فى الفروسية :

وينظر المسيحيون إلى « سان لويس » ، وكأنه النموذج الأعلى للنهرة المسيحية الناضجة ، غير أن الوثائق التاريخية تثبت فى وضوح وسهولة أن خصمه صلاح الدين الأيوبى كان أرفع منه قدراً فى الحضارة وفى الشجاعة وفى معاملة الخصوم .

والفروسية ونبالة قصـــدها ، لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان ، والرمان ، ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً .

وعلى أثره دخلت أوربا ووصلت إلينا نحن الغربيين ، ولم يبق أحد اليوم يفكر نسبتها إلى العرب .

وقد ذكر العالم المسيحى المتدين « بارتلمى سان هيلير » فى سياق حديثه عن القرآن .

« إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوربا ، وفرسانها فى القرون الوسطى ، فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ثم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف ينقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً » .

(و) فى العبقريات العلمية :

ثم أنهم يفخرون بالعالم « باستور » الفرنسى ، ويجعلونه درة فى تاج الحضارات الحديثة ، ولكن فاتهم أن « جابرا » و« الرازى » ، لا يقلان عنه فى مرتبة العلماء والمفكرين ، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم « الكيمياء » بفضل ما كشفاه من طرق التقطير ، ومن الكحول ، ومن « حمض النتريك » و « حمض الكبريتيك(١) » .

إسلامه :

واستمر صاحبنا فى الموازنة والمقارنة ، والتأمل والتفكير ، وأطال النقاش ، ثم أراد الله أن يسلم .

وأسلم ، وبيّن دينه ، واختـــار له اسم « ناصر الدين » ، وأن هذا الاختيار لهو الذى يحدد اتجاهه بعد ذلك خير تحديد . . . ناصر الدين : أنه حقاً خصص حياته لنصرة الدين الإسلامى ، ورأى أن نصرته إنما تكون عن طريقين :

(ا) نصرته سياسياً .

(ب) نصرته دينياً .

أعداء الإسلام :

أن عنصرين من عناصر الشر يتآلبان عـــلى الإسلام ، ويهاجمانه فى عرينه ، وهما :

رجال السياسة الإستعماريون .

---

(١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام .

ورجال الدين المتعصبون .

ولابد — لتكون نصرة الإسلام كاملة — من أن يتجه الدفاع نحو المهدفين، وتطلع ناصر الدين نحو الغاية التى يريد أن يسعى إليها، فهاله الأمر، وكتب معبراً عن الواقع يقول :

« إن أهل السوء من أهل الكتاب لا يتفكون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل، ويحاربوننا بالمفتريات . . وإذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم علينا، كانت فيها صفحة هى أسود الصفحات فى سجل التعصب، يشترك فى تسويدها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم، سواء منهم العلماء، والرواد والقساوسة، ورجال الحكومات، والكتاب، أمثال بيرون وبلجراف، وجلادستون ومرجليوس، وقيس كانتربرى، والأب لامنس، والكاتب لوى برتران سرفيه وغيرهم »(١) .

الإنتصار للإسلام سياسياً :

أما، والأمر كذلك، فلابد من التشمير عن ساعد الجد، والنهوض حقيقة فى وجه عوامل هدم الإسلام هدم، ولكن كيف السبيل؟

أما من جهة السياسة، فإن ناصر الدين ليس من السياسيين المحترفين، ولذلك كانت مهمته فى هذه الناحية التحدث إلى كل من يجد فيه روح الإنصاف من الغربيين، دون النفوذ، والعمل على إذاعة كل ما يمكنه إذاعته من آراء المنصفين منهم، وتبنى قضية الشرق المظلوم.

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلا، ما يلى :

---

(١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام .

نشر أخيراً المسيو « أوجين يونج » وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقاً كتاباً عنوانه « استعباد الإسلام — الحرب الصليبية الجديدة » . وهذا الكاتب معروف كذلك بأنه من الكاثوليك المتمسكين بدينهم ، ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسي من خيرة الفرنسيين وقد أنكر في كتابه هذا ، في كبير شجاعة وصراحة تلك الحروب الصليبية الجديدة التي يقوم بها اليوم « الفاتيكان » ، ذلك المركز الرئيسي للقدس ، حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية ، وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفت في عضدهم ملل أو كلل ، أو أن ينال منهم أي تهاون أو كسل ، وإنما يقومون به من وراء ستار المداهنة ، وفي ثوب من الرياء يشف عما تحته .

ومما جاء في كتاب المسيو « يونج » قوله :

« إننا نهيء من اليوم مقدمات حرب دينية ، شديدة الفزع والهول » .

ثم أظهر أن مصالح فرنسا الحيوية إنما هي في التفاهم والإتفاق الودي مع الإسلام .

وإنا لنرجو أن يكون لكلام هذا الفرنسي الكبير صدى بعيد وأثر محمود في مصلحة فرنسا ، والإسلام على السواء »(١) .

ومن ناحية أخرى ، أخذ ينشر ما يصحح فكرة الأوربيين عن الشعوب الإسلامية ، ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش ، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة ، ويبين أن ماضيها المجيد خير قبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ، فيزيل ما غشي عليها من ظلمات .

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

ويلفت نظر الفرنسيين ، فى قوة ، إلى ما أداه لهم المسلمون من أياد جليلة فى ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا.

ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا الميدان : أنه حينما ألف كتابه فى السيرة النبوية ، أهـــداه ، لأرواح الجنود الإسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى ، وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين .

الإنتصار الإسلام علمياً :

ومع ذلك فإن ميدانه الفسيح إنما كان الدفاع عن الإسلام ، باعتباره ديناً سماوياً ، لقد استمات فى الدفاع عن عقيدته التى يؤمن بها فى يقين حار مطمئن .

ومما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الإسلام والمسيحية فى كثير من الأصول ، وفى كثير من الفروع .

لقد درس الإسلام فى عمق ، ودرس المسيحية فى عمق ، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يفتر ، وتزييفهم بالباطل لكل ميزة للإسلام لا ينقطع فدافع واشتد فى دفاعه ، وهاجم — وكان لابد من الهجوم — وأشتد فى هجومه ، وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة فى رجال الكنيسة . . ولكنه كان يعلن دائما — كما هو الشأن فى كل مسلم — إحترامه للمسيح : لأنه رسول الله ، واحترامه للمسيحية الصحيحة التى يتحدث عنها القرآن ، لا تلك التى ابتدعها رجال من بنى البشر .

كان يعلن دائماً أن دين الله واحد ، وأن الإسلام أتى مصدقا لما سبقه مصححاً لما ناله من تحريف ، مهيمنا عليه ، وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

فالقرآن فى العصر الحاضر ، هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لم ينله — ولن يناله — تحريف أو تبديل .

يقول الأستاذ راشد رستم — بحق — عن ناصر الدين :

« وإنك لتجد الكاتب واسع الإطلاع ، لذلك هو صحيح الحجة فاهض البرهان ، هو شديد الهجوم ، شديد الدفاع : ذلك لأنه غيور على دينه الذى لم يتخذه إلا بعد أن بحث وفكر .

وهكذا كان فى عقيدته مكينا ، وفى إسلامه كاملا(٢) .

كان يصحح الأخطاء ، ويرد الهجوم ، ويهاجم ، ويوازن بين الإسلام والمسيحية ، وكان قبل ذلك وبعد كل ذلك ، يبين الإسلام ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته إلى ذلك : المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب فضلا عن الأحاديث الشفهية .

ومن كتبه فى ذلك :

١ — الرسالة القيمة ، أشعة خاصة بنور الإسلام ، وقد ترجمها ترجمة أدبية ممتازة الأستاذ راشـــد رستم ، وهى رد على الفكرة التى يذيعها القساوسة القائلة :

---

(١) سورة الحجرة آية ٩ راجع كتابنا : تعالوا إلى كلمة سواء جـ ١ ص ١٧ / ٣٣

(٢) عن أشعة خاصة بنور الإسلام .

« إن الإسلام لم يأت بجديد »، وقد انتفعنا بها انتفاعاً عظيماً، وكانت لنا خير عون فى عملنا هذا.

٢ — وآخر ما ألفه هو كتاب «الحج إلى بيت الله الحرام» وقد ترجمت خاتمته ونشرت فى مجلة جمعية الشبان المسلمين، بقلم الأستاذ: م. توفيق أحمد.

٣ — « الشرق كما يراه الغرب »، وقد ترجمه الأستاذ عمر فاخورى، ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء غربية فى مسائل شرقية ».

٤ — ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول عليه السلام — وهو السيرة النبوية — فى مجلد كبير جليل، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الجزائرى الحميم، السيد الفاضل سليمان بن ابراهيم، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة، يمثل فيها المناظر الإسلامية فى بلاد الجزائر ومعالم الدين فيها.

وطبعه طبعاً غاية فى الإتقان والعناية، وقدمه لأرواح الجنود الإسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى، وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين، ونشره كذلك باللغة الإنجليزية، بنفس الحجم الكبير، والإتقان التام.

والكتاب فى طبيعته: قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرافية الملونة ذات الأشكال العربية، غاية فى الدقة والإبداع، وهى اللوحات التى قام بعملها خاصة السيد « محمد رامم » الجزائرى، أشهر رجال الزخرفة العربية ببلاد الجزائر(١)، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب

---

(١) وقد أشار إلى ذلك المسيو الازار بجامعة الجزائر ومدير متحف

خمسة جنيهات مصرية، وأنها لخدمة جليلة للإسلام والمسلمين، ونبي الإسلام مشكورة ومذكورة(١).

وفاته :

استمر ناصر الدين طيلة حياته يناضل عن الإسلام كدين، ويناضل عن المسلمين كشعوب، ويضع روحه، وشعوره، ووجدانه في هذا الدفاع المجيد حتى ليكاد الإخلاص يتجسد خلال ما يسطره من عبارات .

وفي سنة ١٩٢٨ م قام السيد ناصر الدين بأداء فريضة الحج، ووضع كتابه : « الحج إلى بيت الله الحرام » .

وفي ديسمبر سنة ١٩٢٩، توفي بباريس، وصلى عليه بمسجدها الكبير بحضور كبار الشخصيات الإسلامية وغيرها، ووزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الفرنسية، ثم نقل جثمانه إلى بلاد الجزائر حيث دفن في المقبرة التي بناها لنفسه ببلدة، بوسعادة، تنفيذا لوصيته(٢).

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

تلك نماذج حية يتضح بها أهمية الوحي الإسلامي في تجلية العقيدة الإلهية، فلولا الوحي إلى سيدنا محمد ﷺ لظلت العقيدة في طمس الكهنوت الذي لا يعرف للنور طريقا، وتلك من رحمة الله بالعالمين .

= الجزائر، وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٩٢٩، وهي المحاضرة الخاصة بالنهضة الفنية الجزائرية .

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

(٢) نقلا عن كتاب : أوربا والإسلام ص ١٠٣ — ١٣١

ثانيا — أهمية الوحى الإسلامى فى الأخلاق

الكاتبون فى موضـــوع الأخلاق يختلفون كثيراً فى الأسس والاتجاهات ويضطربون فى تحديد المقاييس الأخلاقية .

ويعتبر علماء علم الأخلاق أن سقراط هو زعيم المدرسة الأخلاقية الذى ينتسب إليه كل من جاء من بعده .

وكان السوفسطائيون من قبله قد نشروا سموم نسبيتهم لحقائق الأشياء، فقد كانوا لا يؤمنون بحقيقة ثابتة تجمع عليها عقول جميع الناس ، فكل الحقائق عندهم مرجعها فى الحكم عليها رأى الشخص نفسه فهى حق إن رآها الإنسان حقا وهى خطأ أن رآها إنسان آخر حقا وكلا الحكمين صحيحان لأن المعارف عند السوفسطائية تجىء من طريق الحواس ولهذا فإنهم يجيزون لكل شخص أن يحكم بما يؤدى إليه حسه الخاص . وإذ كانت الحواس متغيرة لاثبات لها فالأحكام التابعة لها والنابعة منها كذلك تكون متغيرة والكل حق والكل صحيح .

ولم يقف السوفسطائيون عند نظريتهم فى نشر هذه التعاليم بل سعوا إلى تطبيقها عمليا ، واشتمل مجال التطبيق كل مناحى الحياة : القانونية ، والدينية ، والأخلاقية .

حتى امتد حبل الإباحة والفوضى فى الأخلاق وانحل قيد الالتزام الدينى فعمت السخرية من الآلهة وانفك عقال السياسة حتى أنكرت العدالة وضاعت حقيقة القانون .. وسادت القوة التى هى شريعة الغاب .

ولكن إذا نظرنا إلى الباعث الحقيقى والدافع المباشر الذى جعل السفوسطائيون أمثال : بروتاجوراس ، جورجياس .. إلخ . إلى التجوال ونشر وتطبيق سفسطائيتهم ... لعلمنا أن الحكم الطاغى الذى جعل النهار

ليلا دامسا حتى يئس الناس من قرب فجر يلبيه بشروق شمس الحقيقة والحرية والأمان هو السبب والدافع .

فهى نظرية لها باعث خارجى كان صداه فى عمق النفس التمرد على هذا الباعث وأسبابه .

ولما جاء سقراط أراد أن يعيد للدين احترامه، وللأخلاق هيبتها والقانون وقاره حتى أشتهر فى تاريخ الفلسفة بأنه : أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض و بسقراط استقرت نظرية الأخلاق فقد قدس المعرفة وقال : إن الخير هو الفضيلة والفضيلة هى المعرفة عنده وكأنما المعرفة هى مقياس الخير : فمن عرف كان خيراً ومن جهل كان شريرا .

وأراد سقراط أن يجعـــل من نظريته أسلوبا سلوكيا كما فعل السوفسطائيون فقد دبر له تلاميذه الفرار من السجن الذى كان ينتظر فيه الموت بعد أن حكم عليه بالإعدام لاتهامه بافساد شباب أثينا .. فأبت نفسه أن يستمع إلى ماحسنه إليه تلاميذه وأبى إلا أن يضرب لهم مثلا حيا فى احترام القانون .

ثم تتابعت نظريات الأخلاق :

• فأرسطو أول من جرح شيخه سقراط لأنه جرد الإنسان من العاطفة والشهوة وجعله عقـلا بحتا ، والإنسان عند أرسطو مركب من الغرائز والشهوات .

• كذلك جرح أرسطو نظرية أستاذه أفلاطون الخيالية فقد جعل أفلاطون نظريته الأخلاقية السمو الروحى والنزعة الميتافيزيقية وجعل — أرسطو — الأخلاق هى الالتزام بالوسط فى كل شىء .

وجاء ديوجين الكلبى من أصحاب المدرسة السقراطية التى يرأسها أنتيسطين